زفنتان تودوروف
نظرية الرمز

ترجمة:
جمال حضري

إن العنوان الطموح الذي سبق يفرض علي البدء بإجراء تقييد. لقد انطلقت من مفهوم إجمالي عن ماهية السيميائية. مكونان اثنان من مكوناتها تبرز أهميتهما هنا: كوننا من خلال السيميائية بصدد خطاب ذي هدف معرفي (وليس الجمال الشعري أو التأمل الخالص) وكون موضوعها يتشكل من علامات من أنواع مختلفة (وليس فقط الكلمات مثلا). هذان الشرخان تحققا كليا لأول مرة ـكما يبدو لي ـ عند القديس أغوسطين. لكن أغوسطين لم يبتكر السيميائية: حتى إنه يمكننا القول على العكس من ذلك بأنه لم يبتكر شيئا ولم يقم إلا بالتأليف بين أفكار ومفاهيم جاءت من آفاق شتى. مما يفرض بالتالي الرجوع إلى "أصولها" –التي نجدها في النظرية النحوية والبلاغية أو في المنطق الخ. لكن الغرض لم يكن القيام بسرد التاريخ الكامل لكل واحد من هذه الاختصاصات إلى غاية عصر أغوسطين –حتى وإن كانت قد ألهمت السيميائية في فترات أخرى ببعض التطورات الجديدة. فالتقليد السابق لأغوسطين لا يتم تناوله هنا إلا بقدر العثور عليه عنده، مما يؤدي إلى انطباع (وهمي) ـيمكن أن تتسبب فيه هذه الصفحاتـ بأن العصور الماضية كلها تؤدي إلى أغوسطين. وهذا أمر خاطئ بالطبع ولكي لا نسوق إلا مثالا واحدا نقول بأنه لو أن فلسفة "أبيقور" اللغوية لم تعالج هنا فإن ذلك يرجع ببساطة إلى كون علاقتها مع سيميائية أغوسطين قليلة الأهمية.

هذه الاعتبارات تفسر الخطة المعتمدة في العرض: أحد أجزائه يخصص للسابقين لأغوسطين الذين تم جمعهم تحت عناوين توافق انسجام خطاب بدل تقاليد معزولة حقيقة، والجزء الآخر خصص لدراسة السيميائية الأغوسطينية بعبارة دقيقة.

التقاليد الخاصة

علم الدلالة

أرجو أن يسمح لي كوني بدأت هذه اللمحة بأرسطو، سنجده أيضا في العديد من العناوين. في هذه اللحظة، سأعتني بنظريته في اللغة كما ظهرت على الخصوص في الفصول الأولى من مؤلفه "في التفسير" [1]. الفقرة المفتاحية هي التالية:

الأصوات المبثوثة من خلال التلفظ هي رموز لحالات النفس، والكلمات المكتوبة هي رموز للكلمات المبثوثة من خلال التلفظ. وكما أن الكتابة ليست هي نفسها عند كل الناس فإن الكلمات المنطوقة ليست أيضا نفسها رغم أن حالات العقل التي تعتبر هذه العبارات علامات فورية لها هي نفسها عند الجميع تماما مثل تماثل الأشياء التي تعتبر هذه الحالات صورا لها (16 أ).

إذا قربنا هذه الفقرة القصيرة من تطورات موازية، يمكن ملاحظة عدة تأكيدات.

1ـ يتحدث أرسطو عن رموز تكون الكلمات حالة خاصة فيها، هذا المصطلح يجب الاحتفاظ به، مصطلح علامة استخدم في الجملة الثانية كمرادف، لكن من المهم أنه لم يظهر في التعريف الاستهلالي، وكما سنرى في الحين، فإن "علامة" عند أرسطو لها معنى تقني آخر.

2ـ نوع الرمز الذي اتخذ فورا كمثال يتشكل من الكلمات، هذه الأخيرة تتحدد كعلاقة بين ثلاث مفردات: الأصوات وحالات النفس والأشياء. المفردة الثانية تؤدي دور الوسيط بين المفردة الأولى والمفردة الثالثة اللتين لا تتواصلان مباشرة. فهو إذا يعقد علاقتين من طبيعة مختلفة كاختلاف المفردات ذاتها. فالأشياء متماثلة مع نفسها دائما وفي أي مكان، وحالات النفس متماثلة أيضا فهي مستقلة عن الأفراد: فيتم الربط بينها إذا من خلال علاقة مبررة حيث تكون إحداهما صورة للأخرى كما يقول أرسطو. غير أن الأصوات ليست هي نفسها عند كل الأمم، ولذلك تكون علاقتها بحالات النفس غير مبررة: أحدهما يدل على الآخر دون أن يكون صورة له.

وهنا نجد أنفسنا في مواجهة الخلاف القديم حول القوة المعرفية للأسماء وبالتالي عن أصل اللغة هل هو طبيعي أم اصطلاحي، والذي يوجد العرض الأشهر له في كراتيل [2] لأفلاطون. هذا النقاش أبرز مشكلات المعرفة أو الأصل الذين لن نهتم بهما هنا والذين لا يخصان إلا الكلمات وليس كل نوع من العلامات، لكن يجب الاحتفاظ بالتمفصل لأنه بالإمكان القول (ولن نتوان عن فعله) أن العلامات إما طبيعية أو اصطلاحية. وحالة أرسطو في هذا الخلاف حيث أيد فرضية الاصطلاح ـ وغالبا ما يعيد هذا التأكيد، وهذا الأخير على الخصوص هو الذي يسمح بتمييز اللغة عن صرخات الحيوانات الشفوية والقابلة للتفسير أيضا. "دلالة اصطلاحية، كما كتب، بحيث إنه لا يكون أي شيء اسما بالطبيعة ولكن فقط حين يصبح رمزا، لأنه حتى حين تدل الأصوات غير المقطعة مثل أصوات الحيوانات على شيء ما، فإنه لا واحد منها يشكل مع ذلك اسما" (المرجع نفسه). فالرموز تنقسم إذا إلى "أسماء" (اصطلاحية) و"علامات" (طبيعية). نلاحظ بهذه المناسبة في كتاب الشعرية [3]، في 1456ب، أن أرسطو يعطي أساسا آخر للتمييز بين الأصوات البشرية والأصوات

الحيوانية: وهو أن هذه الأخيرة لا يمكنها أن تتألف لتشكيل وحدات أكبر ذات دلالة، لكن هذا الاقتراح بدا وكأنه بقي بلا نتائج في تفكير القدماء (إن هذا الاقتراح يتجه رغم ذلك في ذات اتجاه نظرية التمفصل المزدوج).

ونضيف أن أرسطو باعتباره مناصرا للعلاقة غير المبررة بين الأصوات والمعاني واع بمسائل تعدد المعنى والترادف التي توضح تلك العلاقة، وهو يتحدث عن ذلك مرات عديدة كما هي الحال مثلا في تفنيدات سفسطائية [4]، في 165 أ، أو في البلاغة [5]، III، في 1405 ب. هذه المحادثات تبرز جيدا عدم اقتران المعنى بالمرجع "ليس دقيقا، كما يدعي بريسون (Bryson)، أنه لا توجد كلمات نابية بما أن قول هذا الأمر عوضا عن قول ذاك يدل دائما على نفس الشيء، إن ههنا خطأ، لأن كلمة ما يمكن أن تكون أكثر دقة أو أكثر مشابهة أو أكثر ملاءمة لوضع الشيء تحت الأنظار" (1405 ب، يراجع مثال آخر في فيزياء [6]، 263 ب). وبعمومية أكبر ولكن بطريقة أكثر تعقيدا، فإن مصطلح (لوغوس [7]) يشير في بعض النصوص إلى ما تدل عليه الكلمة في مقابل الأشياء ذاتها، يراجع مثلا ميتافيزيقا، 1012 أ: "المفهوم، المدلول عليه من خلال الاسم، هو التعريف نفسه للشيء".

3ـ ليس لأنها أخذت فورا كمثال مفضل للرمز تكون الكلمات هي الحالة الوحيدة له (وهنا بالتحديد يتجاوز نص أرسطو إطار الدلالة اللسانية حصريا)، المثال الثاني المذكور هو الحروف. لا نركز هنا على الدور الثانوي الممنوح للحروف بالنسبة إلى الأصوات، فهذا موضوع معروف جيدا منذ أعمال ج. دريدا (J. Dérrida). لنلاحظ بدلا من ذلك صعوبة تطبيق التقسيم الثلاثي للرمز (أصوات ـ حالات النفس ـ أشياء) على هذه الرموز الخاصة المتمثلة في الحروف. إننا لا نتحدث هنا إلا عن عنصرين اثنين، الكلمات المكتوبة والكلمات المنطوقة.

4ـ ملاحظة إضافية عن التصور المركزي لهذا الوصف: حالات النفس. نسجل أولا بأن الأمر يتعلق بكيان نفسي، شيء ما ليس داخل الكلمة ولكن داخل عقل مستخدمي اللغة. ثانيا، ولكي تكون حدثا نفسيا، فإن حالة النفس هذه ليست أبدا فردية: فهي متماثلة عند الجميع. هذا الكيان ينتمي إذن إلى "علم نفس" اجتماعي أو حتى كوني بدل أن يكون فرديا.

تبقى مشكلة لن نقوم بصياغتها هنا دون القدرة على دراستها: إنها مشكلة العلاقة بين "حالات النفس" والدلالة [8] كما تظهر مثلا في نص الشعرية، حيث تم تعريف الاسم كـ"مركب من أصوات دالة" (1457 أ). يبدو أنه يمكننا الحديث (لكنني أمتنع عن كل تأكيد حاسم) عن حالتين للغة: بالقوة، كما تم تناوله في الشعرية، حيث يغيب كل منظور نفسي، وبالفعل، كما هو في نص التفسير، حيث يصبح المعنى معنى معاشا. مهما يكن الأمر، فإن وجود الدلالة يحد من الطبيعة النفسية للأصوات عموما.

هذه هي النتائج الأولى التي تتوفر لدينا. يمكننا الحديث قليلا عن التصور السيميائي: تم تعريف الرمز جيدا بكونه أوسع من الكلمة، لكن لا يبدو أن أرسطو تناول بشكل جدي مسألة الرموز غير اللغوية أو أنه بحث عن وصف تنوع الرموز اللغوية.

نجد لحظة ثانية للتفكير في العلامة داخل فكر الرواقيين. نعلم بأن معرفة هذا الفكر صعبة جدا، لأننا لا نمتلك عنه إلا مقاطع أخذت مع ذلك عن مؤلفين معادين عموما للرواقيين. سنكون مجبرين إذن على الاكتفاء ببعض الإشارات الموجزة. المقاطع الأكثر أهمية توجد عند سكستوس أمبيريكوس (Sextus Empiricus) في ضد الرياضيين [9]، VIII، 11ـ12:

يقول الرواقيون بأن هناك ثلاثة أشياء مترابطة: المدلول والدال والموضوع، من بين هذه الأشياء، الدال هو الصوت مثلا ديون "Dion"، المدلول هو الشيء ذاته الذي تم الكشف عنه والذي ندركه في بقائه متعلقا بفكرنا لكن دون أن يفهمه الأجانب حتى وإن كانوا قادرين على سماع الكلمة المنطوقة، بينما الموضوع هو ما يوجد في الخارج: مثلا ديون "Dion" بشخصه. عنصران من هذه الأشياء متجسدان: الصوت والموضوع، بينما العنصر الثالث غير متجسد إنه الكيان المكون للمدلول، المقول (lekton)، والذي يكون صحيحا أو خاطئا.

لنستخرج من جديد بعض النقاط الهامة:

1ـنلاحظ هنا ظهور مصطلحات الدال والمدلول (ولنسجل بأنهما بمعنى لا يحتفظ به دو سوسير) دون مصطلح العلامة. هذا الغياب كما سنرى لا يرجع إلى الصدفة. المثال المقدم عبارة عن اسم وبالتحديد اسم علم، ولا شيء يشير إلى أنه سيتم تناول وجود أنواع أخرى من الرموز.

2ـهنا كما هو عند أرسطو، وضعت ثلاث مقولات بالتزامن، نلاحظ أن الموضوع في النصين رغم كونه خارج اللغة فهو ضروري للتعريف. ولا يوجد أي اختلاف هام في هذين العرضين يفصل بين العنصرين الأول والثالث، الصوت والموضوع.

3ـإذا وجد اختلاف، فهو داخل (lekton) أي المقول أو المدلول. لقد قيل الكثير في الأدب المعاصر عن طبيعة هذا الكيان، وانعدام خلاصات للنقاشات يؤدي بنا إلى الاحتفاظ بالمصطلح الإغريقي ذاته. يجب التذكير بداية بأن وضعه "غير المجسد" استثنائي في الفلسفة المادية الخالصة للرواقيين. مما يعني استحالة تصوره كانطباع داخل العقل وإن كانت اصطلاحية: مثل هذه الانطباعات (أو "حالات النفس") "جسدية" عند الرواقيين، في حين أن "الموضوعات" لا يجب بالضرورة أن تنتمي إلى العالم المشهود بالحواس: فيمكن أن تكون فيزيائية كما يمكنها أن تكون نفسية. لا يقع المدلول (lekton) داخل عقل المتكلمين لكن داخل اللغة ذاتها، والإحالة على الأجانب [10] كاشفة، فهؤلاء يسمعون الصوت ويرون الشخص ولكنهم يجهلون المدلول (lekton) أي عملية قيام هذا الصوت بذكر هذا الموضوع [11]. المدلول (lekton) إذن هو قدرة العنصر الأول على تعيين العنصر الثالث، بهذا المعنى، فإن كوننا نتوفر على اسم علم –كمثال– أمر شديد الأهمية بما أن الاسم العلم بخلاف الكلمات الأخرى ليس له معنى، ولكنه مثل الكلمات الأخرى يمتلك قدرة على التعيين. يتعلق المدلول (lekton) بالتفكير ولكنه لا يندمج معه، إنه ليس تصورا، بله أن يكون فكرة أفلاطونية كما تم الاعتقاد بإمكانية قوله، إنه بالأحرى ما يشتغل عليه التفكير. وبالمناسبة فإن التمفصل الداخلي لهذه العناصر الثلاثة ليس هو نفسه عند أرسطو، فلم تعد هناك علاقتان متميزتان جذريا (للدلالة وللصورة)، المدلول (lekton) هو ما يسمح للأصوات بالتعالق مع الأشياء.

4ـالكلمات الأخيرة لـ"سيكستوس" والتي يمكن للمدلول (lekton) بمقتضاها أن يكون صحيحا أو خاطئا، تحثنا على إعطائه أبعاد قضية [12]، بينما يتجه المثال المذكور –وهو عبارة عن كلمة معزولة– إلى وجهة مختلفة. هنا، تسمح لنا بعض المقاطع التي نقلها إما "سيكستوس" وإما "ديوجين" (Diogène) بأن نرى بشكل أوضح.

من جهة، يمكن للمدلول (lekton) أن يكون تاما (قضية) أو غير تام (اسم). ها هو نص "ديوجين": "يميز الرواقيون بين المدلولات (lekta) التامة وغير التامة. والثانية هي تلك التي تكون عبارتها غير تامة مثل "يكتب"، نحن نتساءل: من؟. والتامة هي تلك التي لها معنى تام: "سقراط يكتب" " (حياة [13]، VII، 63). هذا التمييز كان حاضرا عند أرسطو ويؤدي إلى النظرية النحوية حول أجزاء الخطاب، وهذا ما لن ننشغل به هنا.

من جهة أخرى، ليست القضايا بالضرورة صحيحة أو خاطئة: وهذا لا يصح إلا بالنسبة إلى الإثباتات، بينما يوجد إضافة إلى ذلك: الأمر والاستفهام والقسم والدعاء والافتراض والنداء [14] الخ (المرجع نفسه، ص65)، وها هنا من جديد موضع مشترك [15] في تلك الحقبة.

ليس الأمر بأهم مما كان مع أرسطو، فلا نستطيع الحديث هنا عن نظرية سيميائية صريحة، فالكلام يدور حتى الآن حول العلامة اللغوية وحدها.

المنطق

هناك اعتباطية ما في وضع عناوين مستقلة: "علم دلالة"، "منطق" بينما لم يتم وضع تمييز عند المؤلفين القدماء. لكننا نرى هكذا ـبوضوح أكثرـ استقلالية النصوص التي ـمن وجهة نظر لاحقةـ تعالج مسائل متقاربة. سنعيد استعراض نفس المؤلفين كما فعلنا آنفا.

توجد النظرية المنطقية للعلامة عند أرسطو في التحليلات الأولى [16] وفي البلاغة. بداية، ها هو التعريف: "الكائن الذي يؤدي وجوده أو إنتاجه إلى وجود أو إنتاج شيء آخر، سواء أكان سابقا أو لاحقا، إن ههنا علامة على إنتاج أو وجود الشيء الآخر" (تح. أولى 70 أ). مثال يوضح المفهوم ـوالذي وعد بمسار طويلـ هو: أن يكون لدى هذه المرأة حليب، فهو علامة على أنها أنجبت.

يجب في البداية وضع مفهوم العلامة هذا داخل سياقه. بالنسبة لأرسطو، العلامة قياس ناقص: ذاك الذي تنقصه النتيجة. إحدى المقدمات (الأخرى يمكنها أن تكون غائبة أيضاـوسنعود إليها) تؤدي دور العلامة، المعين هو النتيجة (الغائبة). هنا يجب إيراد التصحيح الأول: بالنسبة لأرسطو، القياس الذي تم توضيحه من خلال المثال السابق لا يتميز في شيء عن القياس المعتاد (من نمط: "إذا كان كل الناس فانين..."). نعلم اليوم أن الأمر لا يجري كذلك، فالقياس التقليدي يصف العلاقة بين المحمولات داخل القضية (أو علاقة المحمولات التي تظهر داخل قضايا متجاورة)، بينما ينتمي المثال المذكور إلى المنطق القضوي وليس إلى المنطق المحمولي، فالعلاقات بين المحمولات فيه ليست ملائمة، ووحدها العلاقات بين القضايا هي التي تهم. وهذا ما كان يخفيه المنطق القديم تحت تسمية –تهدف إلى وصف مثل هذه الحالة. هي: "قياس افتراضي".

كوننا نصعد من قضية ("هذه المرأة لديها حليب") إلى أخرى ("هذه المرأة أنجبت")، وليس من محمول إلى آخر (من "الفانين" إلى "الناس") هو أمر أساسي لأننا ننتقل بالمناسبة ذاتها من الجوهر إلى الحدث، مما يسهل بشكل كبير الأخذ في الاعتبار الرمزية غير اللغوية. لقد رأينا من جهة أخرى أن تعريف أرسطو يتحدث عن أشياء وليس عن قضايا (الحالة المعاكسة موجودة في نصوص أخرى). ولن نفاجأ بالتالي إذا لاحظنا أن أرسطو يتجه الآن صراحة إلى العلامات غير اللغوية وبالتحديد إلى العلامات البصرية (70 ب)، المثال المتخيل هو: أطراف كبيرة يمكن أن تكون علامة على الشجاعة عند الأسد. منظور أرسطو هنا معرفي أكثر منه سيميائي: إنه يتساءل عن إمكانية الحصول على معرفة انطلاقا من مثل هذه العلامات، من وجهة النظر هذه، يقوم بتمييز العلامة الضرورية (tekm□rion) عن العلامة المحتملة فقط. سنترك مرة أخرى جانبا هذا الاتجاه من التفكير.

هناك تصنيف آخر يتناول مضمون المحمولات داخل كل قضية، "بين العلامات، هناك ما يبرز العلاقة بين الفردي والكوني، وأخرى علاقة الكوني بالخاص" (بلاغة، I، 1357 ب) مثال المرأة التي أنجبت يوضح هذه الحالة الأخيرة، والمثال عن النمط الأول هو: "العلامة الدالة على أن العلماء عادلون، تعني أن سقراط كان عالما وعادلا". هنا أيضا، نرى سلبيات

الالتباس بين منطق المحمولات ومنطق القضايا: إذا كان سقراط بالفعل يمثل الفردي في مقابل الكوني (عالم، عادل) فإن كون المرأة لديها حليب وأنها أنجبت هما واقعتان من نفس المستوى المنطقي: فهما أمران "خاصان" بالنسبة إلى القانون العام "إذا كان لدى امرأة حليب، فهذا يعني أنها أنجبت".

على الصعيد اللغوي، تعتبر العلامات قضايا ضمنية، ولكن ليست كل قضية ضمنية –ينبهنا أرسطو- مذكورة بواسطة "علامة". فتوجد بالفعل قضايا ضمنية تأتي إما من الذاكرة الجماعية وإما من منطق المعجم ("مثلا حين نقول عن أحد ما أنه رجل، فنكون قد قلنا أيضا بأنه حيوان وأنه حي وأنه ثنائي الأرجل وأنه قابل لأن يعقل ويعلم" مواضع [17]، 112 أ)، بعبارة أخرى، قضايا تركيبية وقضايا تحليلية. لكي تكون هناك علامة، يجب توفر شيء زائد على هذا المعنى الضمني، لكن أرسطو لا يحدد ما هو.

لم يتم في أي لحظة ما مفصلة [18] نظرية العلامة المنطقية بنظرية الرمز اللغوي (ولا أيضا مع المجاز البلاغي كما سنرى لاحقا). وحتى المصطلحات التقنية مختلفة: علامة هنا ورمز هناك.

والأمر ذاته مع الرواقيين. ها هي واحدة من النقول عن "سكستوس أمبيريكوس":

يقول الرواقيون –بهدف عرض مفهوم العلامة- أنها قضية تكون سابقة داخل مقدمة كبرى والتي تكشف النتيجة (...). إنهم يطلقون اسم السابقة على القضية الأولى داخل مقدمة قياسية كبرى تبدأ بالصحيح لتنتهي بالصحيح. إنها تقوم بكشف النتيجة لأن القضية "امرأة لديها حليب" تبدو مشيرة إلى هذه: "لقد حبلت" داخل هذه المقدمة القياسية الكبرى: إذا كان لدى المرأة حليب فهي قد حبلت (خطاطات بيرونية [19]، II، XI).

نعثر هنا بالفعل على عناصر التحليل الأرسطي وحتى المثال المفتاحي. فنظرية العلامة متقاربة مع نظرية البرهنة، ومرة أخرى، فإن ما كان يهم مؤلفيها هو طبيعة المعرفة التي نستخلصها منها. والفرق الوحيد –ولكنه مهم- هو أن الرواقيين الذين يمارسون منطق القضايا وليس منطق الأقسام كانوا واعين بالخصائص المنطقية لهذا النمط من الاستدلال. النتائج المترتبة عن هذا الاهتمام التفضيلي بالقضية مثيرة: إنه بسببها، كما سبق أن لاحظناه بخصوص أرسطو، بدأنا بإعطاء أهمية أكيدة إلى ما سنسميه العلامات غير اللغوية. إن منطق الأقسام عند أرسطو "يلائم فلسفة للمادة والجوهر" "بلانشي"(Blanché)، بينما يقوم المنطق القضوي بالتقاط الوقائع في صيرورتها باعتبارها أحداثا. غير أنه تبين أن الأحداث تحديدا (وليس الجواهر) هي التي ستتناول كعلامات. إن التغيير في موضوع المعارف (أقسام-قضايا) يؤدي إذن إلى توسّع على صعيد المادة المقصودة (فقد أضيف غير اللغوي إلى اللغوي).

إن غياب التمفصل بين هذه النظرية والنظرية السابقة (نظرية اللغة) هو هنا أكثر بروزا بسبب قرب المصطلحات المستخدمة من بعضها البعض. لقد سجلنا أن الرواقيين –داخل نظريتهم الدلالية- لم يتكلموا عن علامة ولكن فقط عن دال ومدلول، لكن القرابة مع ذلك واضحة ولم يفوت سيكستوس ذو النزعة الشكية أن يلاحظها. إنه داخل هذا النقد - الذي يوضح ضرورة ربط مختلف نظريات العلامة- تكمن الخطوة الجديدة الأكبر نحو تشكيل السيميائية. ويحاول سيكستوس أن يقنع بأن الأمر يتعلق بنفس "العلامة" الوحيدة في الحالتين، غير أنه –وهو يقارن الزوج دال-مدلول مع الزوج سابقة-نتيجة- يرى عدة اختلافات، مما يؤدي إلى صياغة الاعتراضات التالية:

1- الدال والمدلول متزامنان، بينما السابقة والنتيجة متتاليتان: كيف يمكننا تسمية العلاقتين بنفس الاسم؟

السابقة لا يمكنها اكتشاف النتيجة بما أن هذه الأخيرة هي بالنسبة إلى العلامة بمثابة الشيء المدلول وأنها بالتالي تلتقط في نفس الوقت معها (...). إذا كانت العلامة لا تلتقط قبل الشيء المدلول فإنه لا يمكنها اكتشاف ما هو ملتقط معها وليس ما هو بعدها. (خطاطات، II، XI، 117ـ118)

2ـالدال "متجسد" بينما السابقة باعتبارها قضية فتكون غير "متجسدة".

الدوال مختلفة عن المدلولات. الأصوات تدل ولكن المدلولات (lekta) يُدلّ عليها، بما فيها داخل القضايا. وبما أن القضايا هي مدلول عليها وليست دالة، فإن العلامة لا يمكن أن تكون قضية. (ضد، 264).

3ـالانتقال من السابقة إلى النتيجة هو عملية منطقية، غير أن أي واحد يمكنه تفسير الوقائع التي يراها، وحتى الحيوانات يمكنها القيام بذلك.

إذا كانت العلامة استدلالا، وكانت السابقة داخل مقدمة كبرى صالحة، فإن أولئك الذين ليست لديهم أية فكرة عن الاستدلال ولم يدرسوا أبدا التقنيات المنطقية يجب أن يكونوا غير قادرين تماما على تفسير العلامات. لكن الأمر ليس كذلك، لأنه غالبا ما يقوم ربابنة أميون وفلاحون غير معتادين على المبرهنات المنطقية بتفسير ممتاز للعلامات: أحدهم يفسر علامات البحر التي تتوقع العواصف وهدوءها، الزوبعة والطقس الجميل، وآخر يفسر علامات المزرعة، متنبئا بالحصاد الجيد أو السيء، وبالجفاف والمطر. ولم الحديث عن الرجال بينما بعض الرواقيين خصوا حتى الحيوانات غير العاقلة بفهم العلامات؟ لأن الكلب بالفعل حين يتتبع حيوانا عقب آثاره فإنه يفسر علامات، لكنه لا يستنتج ذلك من الحكم "إذا كان هناك أثر فإنه يوجد حيوان". والحصان كذلك، تحت وقع المهماز أو السوط يثب إلى الأمام ويبدأ في العدو، لكنه لا يشكل استدلالا منطقيا داخل المقدمة، شيء مثل "إذا ضرب السوط يجب أن أعدو". وإذن، فإن العلامة ليست استدلالا حيث تكون السابقة هي المقدمة الكبرى الصحيحة (المرجع نفسه، 269ـ271).

يجب الإقرار بأنه إذا كانت انتقادات سيكستوس هي محض خصومات شكلية، فإنه لا تنقصها الأهمية هنا. فاستيعاب نوعي العلامات يطرح فعلا مشكلات. لنتخيل بأن سيكستوس بحث ليس عن هشاشة المذهب الرواقي ولكن عن تمفصل النظريتين، فإن اعتراضاته تصبح انتقادات بناءة بحيث يمكن إعادة صياغتها كما يلي:

1ـالتزامن والتوالي هما نتيجتان لاختلاف أكثر عمقا: ذلك أنه، داخل حالة العلامة اللسانية (كلمة أو قضية)، يقوم الدال بإثارة مدلوله مباشرة، في حالة العلامة المنطقية، فإن السابقة باعتبارها مقطعا لغويا لديها بالتأكيد معنى خاص بها يتم الاحتفاظ به، و لا يقوم إلا بشكل ثانوي بإثارة شيء آخر أي النتيجة. الاختلاف هو الذي يوجد بين العلامات المباشرة وغير المباشرة أو ـ بمصطلحات مضادة لمصطلحات أرسطو ـ بين العلامات والرموز.

2ـتتكون الرموز المباشرة من عناصر مختلطة: أصوات، مدلول (lekton) غير متجسد، موضوع، بينما تتكون الرموز غير المباشرة من كيانات انبثقت من نفس الطبيعة: فمدلول (lekton) ما، مثلا، يستدعي آخر.

3ـهذه الرموز غير المباشرة يمكنها أن تكون لغوية وغير لغوية على السواء. في الحالة الأولى، تأخذ شكل قضيتين اثنتين، في الحالة الثانية، تأخذ شكل حدثين اثنين، تحت هذا الشكل الأخير تكون سهلة المقاربة ليس فقط بالنسبة للمناطقة ولكن أيضا للرجال غير المثقفين وحتى للحيوانات. وليس لجوهر الرمز أي حكم مسبق على بنيته. ولا تلتبس علينا، من جهة أخرى، قدرة (الاستنتاج) بإمكانية الحديث عنه (خطاب المنطقي).

إذا أعدنا التفكير في تقسيم المدلولات (lekta) إلى تامة وغير تامة، سندرك أنه من الممكن إعادة تشكيل جدول مع خانة فارغة:

	كلمة	قضية
مباشرة	مدلول (lekton) غير تام	مدلول (lekton) تام
غير مباشرة	؟	علامة

هذا الغياب هو في درجة من الغرابة (لعل الخطأ يرجع ببساطة إلى الحالة التفتيتية لكتابات الرواقيين التي وصلت إلينا) توازي كون الرواقيين هم المؤسسون لتقليد تأويلي [20] يعتمد على المعنى غير المباشر للكلمات-على مجاز التمثيل (allégorie)- لكن هذا يقودنا من الآن إلى إطار اختصاص آخر.

قبل مغادرة النظرية المنطقية للرواقيين، يجب أن نشير إلى مشكلة أخرى. ينقل سيكستوس أنهم يقسمون العلامة إلى قسمين: تذكارية وكاشفة. هذا التقسيم ناتج عن تصنيف مسبق للأشياء والذي بمقتضاه تكون هذه الأخيرة إما بديهية وإما غامضة وفي هذه الحالة الأخيرة، تكون غامضة مرة واحدة ونهائية أو بالمناسبة أو بالطبيعة. القسمان الأولان الناتجان عن التقسيم أي الأشياء البديهية أو الغامضة دوما لا يستدعيان العلامة، إن القسمين الأخيرين هما اللذان يقومان بذلك ويصبحان بالتالي أساسا لنوعين من العلامات:

تلك التي تكون غامضة للحظة وتلك التي تكون غير مؤكدة بالطبيعة يتم التقاطها من خلال علامات، ليس نفس العلامات، لكن الأولى من خلال علامات تذكارية (أو استدعاء)، والثانية من خلال علامات كاشفة (أو الإشارة). نطلق اسم العلامة التذكارية على العلامة –وقد شوهدت بوضوح في نفس الوقت مع الشيء المدلول عليه- التي ما إن تقع تحت حواسنا –مهما كان غموض الشيء- حتى تدفعنا إلى تذكر ما كنا قد شاهدناه في نفس الوقت معها، حتى وإن لم يقع بوضوح تحت نظرنا، كما هي الحال مع الدخان والنار. العلامة الكاشفة –حسب ما يقولون- هي تلك التي لم تشاهد بوضوح في نفس الوقت مع الشيء، ولكنها بطبيعتها الخاصة وتشكيلها تشير إلى ما هي علامة عليه، مثل حركات الجسد كعلامات على النفس (خطاطات، II، X، 99-101).

أمثلة أخرى عن أنواع العلامات هذه: التذكارية: الندوب بالنسبة للجرح، تبضيع القلب دلالة على الموت، والكاشفة: العرق دلالة على مسام الجلد.

هذا التمييز لا يبدو أنه يعني البنية السيميائية الخالصة للعلامات ولا يطرح إلا إشكالا معرفيا. في حين أن سيكستوس في نقده للتمييز ينقل النقاش إلى ساحة تبدو أقرب إلينا. لأنه لا يؤمن بوجود علامات كاشفة. فهو يقوم إذن في البداية بتعديل علاقة هذين القسمين بتوجيه أحدهما –العلامات التذكارية- إلى مصف الجنس، ونقل الآخر – العلامات الكاشفة- إلى مصف النوع الذي لا يؤمن بوجوده أصلا (ضد، 143). انطلاقا من هذا، يستخدم في نقاشه تقابلين: العلامات متعددة المعنى والعلامات وحيدة المعنى، والعلامات الطبيعية والعلامات الاصطلاحية. يمكن تلخيص النقاش فيما يلي: يعارض سيكستوس وجود علامات كاشفة بالتأكيد على أنها لا تسمح باستنتاج أي معرفة أكيدة بفعل أن شيئا ما يمكنه أن يرمز -احتمالا- إلى عدد غير نهائي من الأشياء، فهو إذن ليس علامة. وهو ما يرد عليه الرواقيون بـ: لكن العلامات التذكارية (رغم أن سيكستوس قبل بوجودها) يمكنها أن تكون متعددة المعنى أيضا وتستدعي أشياء عديدة في نفس الوقت. ويقبل سيكستوس هذا واقع الحال هذا، ولكنه يبين أنه يعتمد على أساس آخر: لا تكون العلامات التذكارية متعددة المعنى إلا بقوة الاصطلاح. غير أن العلامات الكاشفة -من خلال التعريف- طبيعية (إنها موجودة باعتبارها أشياء قبل أن تفسر)، بينما تكون العلامات التذكارية إما طبيعية (كالدخان مع النار) وتكون

بالتالي وحيدة المعنى، وإما اصطلاحية وحينها يمكن أن تكون إما وحيدة المعنى (مثل الكلمات) وإما متعددة المعنى (مثل المشعل الموقد الذي يعلن مرة وصول الأصدقاء وأخرى وصول الأعداء). ها هو نص سيكستوس ذاته:

ردا على أولئك الذي يستنبطون خلاصات من العلامة التذكارية ويذكرون حالة المشعل أو أصوات الجرس (التي يمكن أن تعلن بداية سوق اللحم أو ضرورة رش الشوارع)، يجب أن نصرح بأنه ليس من المفارقة أن تكون مثل هذه العلامات قادرة على إعلان أشياء عديدة في نفس الوقت. لأن هذه العلامات يتم تحديدها من قبل المشرعين، وباستطاعتنا أن نكشف لها شيئا واحدا أو عدة أشياء. ولكن بما أن العلامة الكاشفة منوط بها إثارة الشيء المدلول عليه على الخصوص، فإنه يجب عليها ألا تشير إلا إلى شيء واحد فقط. (ضد، 200ـ201).

هذا النقد من سيكستوس ليس مهما فقط لأنه يشهد عن فكرة أن العلامة التامة لا يجب أن توفر إلا على معنى واحد، أو على تفضيل سيكستوس للعلامات الاصطلاحية. لقد رأينا أن التقابل طبيعي-اصطلاحي ينطبق إلى ذلك الحين على أصل الكلمات وأنه يجب الاختيار بين هذا الحل أو ذاك (أو التوفيق بينهما). يطبقه سيكستوس من جهته على العلامات عموما (والتي تشكل الكلمات فيها حالة خاصة) وإضافة إلى ذلك، فهو يتصور وجودا متزامنا لهذا النوع وذاك من العلامات: الطبيعية والاصطلاحية، الاختلاف رئيسي. وبهذا ينطلق من نظرة سيميائية خالصة. هل كانت صدفة أن تكون هذه الأخيرة في حاجة إلى نزعة توفيقية (هنا نزعة سيكستوس) لكي تزدهر؟

بلاغة

لقد رأينا أنه إذا كانت "العلامة" بمعنى أرسطو، قد عولجت من قبله في إطار البلاغة، فإن تحليله ينتمي بشكل خالص إلى المنطق. سندرس الآن ليس "العلامة" ولكن الأصوات غير المباشرة أو المجازات.

مرة أخرى، يجب أن نبدأ بأرسطو، لأن التقابل خالص-منقول يجد أصله عنده، وهو ما يهمنا هنا في المقام الأول. لكن في أصله، ليس هذا التقابل هو ما سيصبح عليه لاحقا. ليس فقط كل منظور سيميائي هو فقط ما يغيب عن وصف أرسطو ولكن أيضا الدور المهيمن لهذا التقابل الذي تعودنا أن نراه مؤديا له. النقل أو الاستعارة (مصطلح يشير عنده إلى مجموع المجازات) ليس بنية رمزية تتوفر-من بين ما تتوفر عليه- على تمظهر لغوي، ولكنه نوع من الكلمة: حيث المدلول هو غير المدلول المعتاد، إنه يظهر داخل قائمة من الأقسام المعجمية التي تتضمن للوهلة الأولى على الأقل ثمانية مصطلحات، إنه نوع تكميلي للاستحداث اللفظي [21] أو تجديد الدال. وبصراحة، فإن التعريفات الموجودة هي نوعا ما غامضة. نقرأ في الشعرية: "النقل هو ترحيل لاسم غير مناسب" (1457 ب)، وفقرة موازية في مواضع -لكن حيث لا يظهر مصطلح استعارة (نقل)- تقول: "هناك أيضا من يسمي الأشياء بأسماء محولة (فيسمي العيثام [22] مثلا رجلا) مخترقا بذلك الاستعمال الجاري" (109 أ). تتحدث البلاغة بخصوص العملية المجازية عن "ما لا نسميه ونحن نقوم بتسميته" (1405 أ). وكما نرى فإن أرسطو يتردد بين تعريفين للاستعارة أو أنه يعرفها من خلال هذه الثنائية ذاتها: فهي إما المعنى غير الخالص [23] (ترحيل، اختراق الاستعمال الجاري) أو العبارة غير الخالصة لاستحضار معنى ما (اسم غير مناسب، تسمية تتفادى التسمية الخالصة). ومهما يكن فإن الاستعارة تبقى صنفا لغويا بحتا، وأكثر من ذلك فإنها قسم فرعي للكلمات. اختيار استعارة بدل مفردة غير استعارية ينطلق من ميل إلى اختيار هذا المرادف بدل ذاك: إننا نبحث دوما عما هو مناسب وملائم. ها هي فقرة تذهب في هذا الاتجاه:

إذا أردنا امتداح موضوع، فيجب إقراض الاستعارة إلى أرفع ما هو موجود في نفس الجنس، وإذا أردنا التوبيخ أقرضناها إلى الأخس قيمة، أريد أن أقول مثلا، بما أن الأضداد هي من نفس الجنس، فإن التأكيد في حالة بأن من يتسول يرجو، وفي

الحالة الأخرى أن من يرجو يتسول، وبما أن هذين الفعلين كليهما يخلبان، فإنه قيام بما أتينا على ذكره (بلاغة، III، 1405 أ).

إن النقل هو وسيلة أسلوبية من بين أخرى (حتى وإن كانت الوسيلة المفضلة عند أرسطو) وليس صيغة وجود للمعنى، بحيث سيكون من الضروري مفصلته مع الدلالة المباشرة. الخالص بدوره ليس هو المباشر ولكنه الملائم. إننا نفهم أنه في هذه الظروف مازلنا لا نستطيع إيجاد فتحة نحو تنميط للعلامات داخل نظرية النقل.

لا تبقى الأمور عند هذا الحد. بداية من عصر أتباع أرسطو مثل "ثيوفراست" (Théophraste)، فإن صور البلاغة تأخذ في أداء دور يزداد أهمية أكثر فأكثر، نعرف أن هذه الحركة لن تنتهي إلا بموت البلاغة، والتي تصل إلى هذه الأخيرة حين تتحول إلى "صورية"[24]. كما أن مضاعفة المصطلحات ذو دلالة. فإلى جانب "النقل" المستخدم دائما بالمعنى التوليدي، يظهر "مجاز" و"مجاز التمثيل" و"سخرية" و"صورة"، ولا تبتعد تعريفاتها كثيرا عن تعريفات أرسطو. مثلا، يكتب "هيراقليط" (pseudo-Héraclite): "صورة الأسلوب التي تقول شيئا ولكنها تدل على شيء آخر مختلف عن الشيء الذي تم الحديث عنه، تسمى باسمها الخالص مجاز التمثيل"، ويقول "تريفون" (Tryphon): "المجاز هو خريقة في الحديث محولة عن المعنى الخالص". غير أنه يتم تعريف المجاز ومرادفاته هنا كظهور لمعنى ثان وليس كاستبدال دال بآخر. لكن مكانة ودور المجازات هي التي تتغير ببطء، فهذه الأخيرة تتجه إلى أن تصبح أكثر فأكثر أحد قطبي الدلالة (والآخر هو العبارة المباشرة)، المقابلة هي مثلا أكثر قوة عند "سيشرون" منها عند "أرسطو".

لنفحص بسرعة الحلقة الأخيرة في السلسلة البلاغية في العالم القديم، عند من يقوم بتركيب التقليد: "كانتيليان" (Quintilien). ليس أكثر مما عند أرسطو، لا نجد هنا فحصا سيميائيا للمجازات. بفضل سعة مؤلفه، ينتهي كانتيليان إلى ضم عدة اقتراحات تذهب في هذا الاتجاه داخل خطابه، لكن غياب الصرامة عنده منعه من صياغة المشكلات بصراحة. بينما كانت العبارة غير المباشرة مرتبة من قبل أرسطو بين عدة وسائل معجمية أخرى ذهب كانتيليان إلى عرضها كإحدى صيغتي الكلام الممكنتين: "إننا نحب أن نسمع الأشياء من أن نقولها صراحة" (مؤسسة خطابية، VIII، 2، 10). لكن محاولته تنظير المقابلة بين "القول" و"الإسماع" التي تمر عبر مقولتي الخالص والمنقول لم تنجح، في نهاية المطاف، فإن المجازات هي أيضا خالصة: "الاستعارة السليمة تسمى أيضا خالصة" (VIII، 2، 10).

توجد واقعة مثيرة سببها حضور المحاكاة الصوتية[25] بين المجازات. فلدينا صعوبة لفهم هذا الانتماء إذا تمسكنا بتعريف المجاز بتغير المعنى (أو باختيار دال غير خالص لأننا نجد التصورين عند كانتيليان). التفسير الوحيد الممكن يكمن تحديدا في التصور السيميائي للمجاز، أي باعتباره علامة مبررة: إنها السمة المشتركة الوحيدة بين الاستعارة والمحاكاة الصوتية. لكن هذه الفكرة لم يصغها "كانتيليان"، يجب انتظار القرن الثامن عشر لكي يذكرها "لسينغ" (Lessing).

يخصص "كانتيليان" نفسه فقرات خويلة لمجاز التمثيل، لكن هذه الأهمية الكمية لم يكن لها مقابل نظري. فقد تم تعريف مجاز التمثيل بما عرفه به "سيشرون" كمتتالية من الاستعارات أو كاستعارة متسلسلة. وهذا ما يطرح أحيانا مشكلات نجدها في تعريف المثال، لأن هذا الأخير على خلاف الاستعارة يحتفظ بمعنى التأكيد الاستهلالي الذي يتضمنه، ومع ذلك فقد تم تقريبه من قبل "كانتيليان" إلى مجاز التمثيل. لكن هذه المشكلة (في التفريعات داخل العلامات غير المباشرة) تمر دون أن تلاحظ، تماما مثل بقاء الحد بين المجازات وصور الفكر غامضا.

إن حقل البلاغة نفسه لا يتضمن نظريات سيميائية. في حين أنه يهيئها وهذا من خلال العناية الموجهة إلى ظاهرة المعنى غير المباشر. بفضل البلاغة، أصبح التقابل خالص-منقول معتادا في العالم القديم (حتى وإن وجدت شكوك بخصوص محتواه).

التأويلية

التقليد التأويلي يبدو على الخصوص صعب الفهم، بقدر ما هو وافر ومتعدد الأشكال. الاعتراف ذاته بموضوعه يبدو مكتسبا منذ العهود الأكثر قدما، حتى وإن لم يكن إلا في شكل مقابلة بين نظامين للغة، مباشر وغير مباشر، واضح وغامض، "عقلي" و"أسطوري" [26] وبالنتيجة بين صيغتين للتلقي، الفهم في واحدة والتفسير في الأخرى. وهذا ما يشهد عليه المقطع الشهير لـ"هيراقليط" الذي يصف كلام خطبة "دلفيس" (Delphes): "المعلم الذي توجد خطبته في "دلفيس" لا يقول شيئا ولا يخفي شيئا ولكنه يدل". ونستحضر بمفردات مشابهة توجيه "فيتاغورس" (Pythagore). يتم الاحتفاظ بهذه المقابلة في الكتابات التالية لكن دون تبرير، وها هو مثال مأخوذ عن "دنيس هاليكارناس" (Denis d'Halicarnasse): "البعض يجرؤ على الادعاء بأن الشكل المصور غير مسموح به في الخطاب، فيجب –وفق نظرتهم- إما أن نقول أو لا نقول، ولكن دائما ببساخة، والكف من الآن فصاعدا عن الحديث بالتضمينات" (فن بلاغي [27]، IX).

داخل هذا الإخبار التصوري شديد العمومية تنخرط العديد من التطبيقات التفسيرية، والتي نكتفي بتوزيعها إلى متواليتين متباعدتين جدا إحداهما عن الأخرى: التعليق على النصوص (التعليق على "هوميروس" وعلى التوراة، قبل كل شيء) والتنبؤ في أشكاله الأكثر تنوعا (التنجيمية).

يمكن أن نفاجأ برؤية التنبؤ يظهر بين الممارسات التأويلية، في حين أن الأمر يتعلق باكتشاف المعنى بالنسبة لموضوعات لم تكن تتوفر عليه، أو اكتشاف معنى ثان بالنسبة لموضوعات أخرى. لنلاحظ بداية –ستكون هذه أول خطوة نحو تصور سيميائي- التنوع ذاته للجواهر التي تصبح نقطة انطلاق للتفسير: من الماء إلى النار، من خيران الطيور إلى أحشاء الحيوانات، جميعها يمكنها أن تصبح علامة وبالتالي تولد التفسير. يمكننا التأكيد أيضا، بأن هذا النمط من التفسير يقترب من ذلك الذي تجبرنا عليه الصيغ غير المباشرة للغة، أي مجاز التمثيل. لدينا مؤلفان يمكنهما الشهادة هنا على التقليد شديد الاختلاط.

أولا، يقوم "بلوتارك" (Plutarque) –حين يبحث عن تمييز لغة الخطب- بتقريبه بالضرورة من العبارة غير المباشرة، وهكذا:

مع هذا الوضوح في الخطب، فقد حدث لها في الرأي العام تطور مواز للتغيرات الأخرى: في السابق، كان أسلوبها الغريب والفريد، والغامض والاستطرادي تماما، حافزا على الاعتقاد بطابعها الغيبي بالنسبة للجمهور بما يملؤها بالإعجاب وباحترام ديني، لكن بعد ذلك أصبحت الأفضلية لمعرفة الشيء بوضوح وسهولة، دون تفخيم ولا لجوء إلى الخيال، وتم اتهام الشعر المحيط بالخطب بأنه يعارض معرفة الحقيقة من خلال الخلط بين الظلام والظل بوحي الإله، حتى أنه حامت الشكوك حول الاستعارات والألغاز والمبهمات باعتبارها مهربا وملجأ بالنسبة للتنبؤات، تهيأ للسماح للغيبي بأن يعتكف ويختفي في حال الخطأ (حول خطب العرافة [28]، 25، 406 ف، 407 ب).

تختلط اللغة الخطابية هنا باللغة المنقولة والغامضة للشعراء.

الشاهد الثاني: "آرتيميدورس أيفيس" (Artémidore d'Ephèse)، مؤلف مفتاح الأحلام الشهير، والذي يلخص وينظم تقليدا كان حينها غنيا. بداية، لقد كان تفسير الأحلام يقرن دوما بتفسير الكلمات، تارة من خلال التشابه:

مثل معلمي النحو، إذا علموا مرة الأخفال قيمة الحروف، فإنهم يبينون لهم أيضا كيف يوظفونها معا، وعلى ذلك المنوال تماما سأضيف إلى ما قلت بعض التوجيهات النهائية المختصرة للاتباع، لكي يجد أول قادم في كتابي تكوينه بسهولة. (III، خلاصة).

وتارة من خلال المجاورة:

حين تكون الأحلام قد تشوهت ولا تعطي متكأ تقريبا، فيجب على مفسر الأحلام أن يضيف بنفسه شيئا من اصطناعه، وخاصة في الأحلام التي نجد فيها إما حروفا لا تمثل المعنى الكامل أو كلمة ليست لها علاقة مع الشيء، يجب على مفسر الأحلام إذا أن يجري تبديلات أو تغييرات أو إضافات لحروف أو مقاطع (I، II).

كما يفتح "آرتيميدورس" كتابه بالتمييز بين نوعين من الأحلام وهذا التمييز يفصح بوضوح عن أصلها: "من بين الأحلام، هناك النظرية [29] والأخرى مجازية تمثيلية. الأحلام النظرية هي تلك التي يكون أداؤها مشابها تماما لما قامت بإظهاره للعيان (...). أما المجازية التمثيلية فهي تلك التي تدل على أشياء بواسطة أشياء أخرى" (I، 2). من المحتمل أن يكون هذا التقابل منسوخا عن التقابل خالص-منقول، المقولتان البلاغيتان، لكنه ينطبق هنا على مادة غير لغوية. نجد من جهة أخرى تقاربا –ربما يكون غير إرادي- بين الصور الحلمية والمجازات البلاغية عند أرسطو ذاته الذي يؤكد من جهة أن "تشكيلا جيدا للاستعارات يعني إدراكا جيدا للتشابهات" (شعرية، 1459 أ)، ومن جهة أخرى يكون "مفسر الأحلام الأكثر مهارة هو ذاك الذي يمكنه أن يرى التشابهات" (في الغيبية داخل النوم [30]، 2)، وكتب "آرتيميدورس" أيضا: "ليس تفسير الأحلام شيئا آخر غير تقريب الشبيه من الشبيه". (II، 25).

لنعد الآن إلى النشاط التأويلي الأساسي: التفسير النصي. إنها بداية ممارسة لا تقتضي أي نظرية خاصة للعلامة ولكن -بدلا من ذلك- ما يمكن أن نسميه استراتيجية في التفسير، تختلف من مدرسة إلى أخرى. يجب انتظار "كليمون الاسكندري" (Clément d'Alexandrie) لكي توجد داخل التقليد التأويلي محاولة تتجه نحو السيميائية. في البدء، يعلن "كليمون" صراحة وحدة الحقل الرمزي –المتميزة بالاستخدام المنهجي لكلمة "رمز"، إنه يستخدم العبارة "صيغة التعبير بمفردات مغطاة" (V، 19، 3). ها هو مثال عن تعداد بدائل الرمزية:

هذه الشكليات التي كانت عند الرومان بالنسبة للوصايا، مثل حضور موازين وعملات دقيقة لاستحضار العدالة، وحفلة عتق لتمثيل اقتسام الممتلكات وملامسة الآذان للحث على خدمة الوسيط (أغشية، V، 55، 4).

كل هذه الإجراءات رمزية كما هي أيضا اللغة غير المباشرة:

"آعيطيا" ملك "السويطيين" [31] إلى شعب "بيزنطة": لا تضايقوا أخذ الضرائب وإلا ذهبت أفراسي لشرب مياه أوديتكم. لقد أعلن لهم الأجنبي من خلال هذه اللغة الرمزية عن الحرب التي سوف يخوضها ضدهم. (V، 31، 3).

إذا كان الاستيعاب يجري هنا بين الرمزية غير اللغوية والرمزية اللغوية، فإن تمييزا واضحا تم الاحتفاظ به في المقابل بين اللغة الرمزية ورمزيتها (غير المباشرة والمباشرة). تتضمن الكتابة فقرات مكتوبة عن هذه وتلك، لكن مختصين مختلفين هم الذين ينبهوننا إلى قراءتها: المعلم [32] من جهة والبيداغوجي [33] من جهة أخرى.

كما أن "كليمون" أيضا هو مؤلف العديد من الأفكار عن كتابة المصريين الذي أثروا بقوة في تفسير هذه الأخيرة خلال القرون التالية، إنها مثال كاشف عن توجهه إلى معالجة مواد مختلفة بنفس المفردات، وعلى الخصوص إلى تطبيق المصطلحية البلاغية على أنواع أخرى من الرمزية (البصرية هنا). ويؤكد "كليمون" وجود العديد من أنواع الكتابة عند المصريين، إحداها هي الطريقة الهيروغليفية. وها هو وصفها:

الجنس الهيروغليفي يعبر جزئيا عن أشياء بشكل خالص (تصويري [3 4]) بواسطة حروف أولية، وهو رمزي جزئيا. في الطريقة الرمزية، يعبر النوع عن الأشياء بشكل خالص من خلال المحاكاة، ويكتب نوع ولو بصفة مجازية، بينما يكون نوع ثالث تمثيليا بشكل صريح من خلال بعض الألغاز. فالمصريون إذا أرادوا كتابة كلمة "شمس" يرسمون دائرة، وبالنسبة لكلمة "قمر" يرسمون صورة هلال، هذا بالنسبة للجنس التصويري. إنهم يكتبون بطريقة مجازية محولين المعنى وناقلين للعلامات بسبب علاقة ما، إنهم يستبدلونها جزئيا بعلامات أخرى، ويغيرونها جزئيا بطرق شتى. وهكذا إذا أرادوا نقل شكر الآلهة من خلال أساخير دينية فيكتبونها على شكل نقوش بارزة. ها هو مثال على النوع الثالث الذي يستخدم الألغاز: إنهم يصورون الكواكب الأخرى بثعابين بسبب سباقها الملتوي، أما الشمس فتصور بالجعل لأن هذا الأخير ينجز بروث البقر شكلا مدورا يقوم بدفعه أمامه. (V، 20، 3ـ21، 2).

في هذا النص الشهير، هناك عدة نقاط يجب الحفاظ عليها. بداية، إمكانية العثور على نفس البنيات عبر مواد مختلفة: اللغة (استعارات، ألغاز)، الكتابة (الهيروغليفية)، الرسم (محاكاة). هذا النمط من التوحيد هو خطوة نحو تكوين نظرية سيميائية. من جهة أخرى، يقترح "كليمون" تنميطا لحقل العلامات كله، اختصار هذا الاقتراح يفرض علينا بعض التعديل في بناء الفرضيات. يمكننا تلخيص التقسيم فيما يلي:

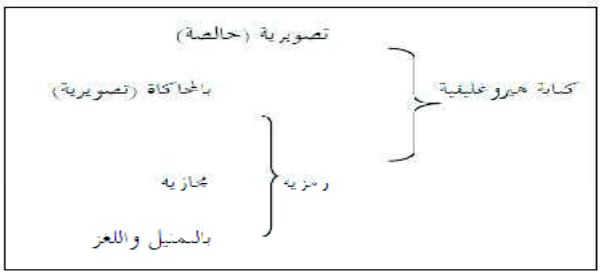

هناك بالطبع نقطتان صعبتان في هذا التوزيع: كون الطريقة الخالصة، التصويرية، تظهر في موضعين مختلفين من الرسم، وتلك التي يشكل فيها التمثيل المجازي ـباعتباره مجازا في البلاغةـ قسما مستقلا. من أجل الحفاظ على انسجام النص، يمكننا اقتراح التوضيح التالي بالاعتماد على الأمثلة المذكورة. بداية، للجنس التصويري والنوع الرمزي التصويري في آن معا سمات مشتركة وسمات متباينة. إنهما يشتركان في كون هذه العلاقة مباشرة: الحرف يدل على الصوت، كما تدل الدائرة على الشمس دون أي تحوير، ليس لهما دلالة أخرى سابقة على هذه. لكنهما يتمايزان أيضا: العلاقة بين الحرف والصوت غير مبررة، بينما علاقة الدائرة بالشمس مبررة، هذا الاختلاف يمكن بدوره أن ينتج عن أسباب مرت هنا دون أن تثير الانتباه. فالمقابلة إذن بين الجنسين التصويري والرمزي هي مقابلة بين غير المبرر والمبرر، بينما المقابلة داخل الرمزي بين النوع التصويري والأنواع الأخرى هي تقابل المباشر مع غير المباشر (المنقول).

من جهة أخرى، يقتضي تفكيك شفرة الكتابة المجازية خطوتين: الرسم التصويري يدل على موضوع (بمحاكاة مباشرة)، وهذا الأخير يستحضر بدوره موضوعا آخر من خلال التشابه أو المشاركة أو التضاد الخ. ما يسميه "كليمون" لغزا أو مجاز تمثيل يقتضي في المقابل ثلاث علاقات: بين الرسم التصويري والجعل هناك محاكاة مباشرة، بين الجعل وكرة الروث علاقة مجاورة (كنائية

)، وأخيرا بين كرة الروث والشمس علاقة تشابه (استعارية). الاختلاف بين المجازات والمجاز التمثيلي هو إذا في نحول السلسلة: هناك تحويل واحد في الحالة الأولى، وتحويلان في الحالة الثانية. لقد عرفت البلاغة مسبقا مجاز التمثيل كاستعارة مطولة، لكن بالنسبة إلى "كليمون" هذا التطويل لا يتبع ظاهر النص، إنه يجري نوعا ما حالا و في العمق.

إذا قبلنا كون الاختلاف بين الكتابة المجازية والكتابة التمثيلية هو الاختلاف بين علاقتين أو ثلاث، فإن موقع الكتابة الرمزية التصويرية يتضح: إنها تأتي أولا، لأنها تتطلب تكوين علاقة واحدة، تلك التي تنعقد بين الدائرة والشمس، وبين الصورة و معناها (إنها لا تعرف تحويلا). مثل هذا التفسير يوضح الترتيب المقترح من قبل "كليمون" ويبين في نفس الوقت نظرية العلامات التي تدعمه. إنها محتملة بما أن مقولة التحويل موجودة بالفعل عند "كليمون".

خارج هذه المساهمة النظرية الأساسية ذاتها (لكن الفرضية) يبقى "كليمون" وجها مهما جدا، لأنه يهيئ السبيل أمام القديس أغوسطين في نقطتين جوهريتين، بالتأكيد على:

1ـأن التنوع المادي للرمزية الذي يمكن أن يمر بأي واحدة من الحواس والذي يمكن أن يكون لغويا أو غير لغوي، لا ينقص من وحدتها البنيوية. 2ـأن الرمز يتمفصل مع العلامة مثل المعنى المنقول مع المعنى الخالص، أي أن التصورات البلاغية يمكنها أن تنطبق على علامات غير لفظية. أخيرا، إن "كليمون" أيضا هو الأول الذي وضع بوضوح التكافؤ الرمزي = غير المباشر.

هوامش النص:

1- De l’interprétation
2- Cratyle
3- Poétique
4- Réfutations sophistiques
5- Rhétorique
6- Physique
7- logos
8- signifiance وهناك من يترجمها بـــ"الاندلال" أي قابلية الشيء لأن يتأسس كعلامة
9- -contre les mathématiciens
10- ترجمت لفظة (barbares) بالأجانب لأنه المقصود أما حرفيا فهي تعني البرابرة والحمولة القدحية تجعلها غير مناسبة في السياق العلمي الذي نحن بصدده (المترجم).
11- قد يوحي السياق الجملي أن ترجمة (objet) بـــ"شيء" هي الأنسب ولكن لنلاحظ أن المؤلف يستخدم أيضا كلمة (chose) ففضلنا الاحتفاظ بـــ"شيء" ليكون مقابلا لها وخصصنا "الموضوع" لكلمة (objet). (المترجم)
12- proposition
13- Vie
14- impératif, interrogatif, serment, imprécation, hypothèse, vocatif
15- lieu commun مقولة بلاغية إغريقية :
16- les Premières Analytiques
17- Topiques
18- -articulation
19- Esquisses Pyrrhoniennes
20- -يذهب البعض إلى تعريب هذا المصطلح بدل ترجمته فيعطى له المقابل "هرمنوطيقا"، وأرى أن إمكانية الترجمة قائمة إذا تم التمييز بين التفسير كمقابل لـــ(interprétation) والتأويل كمقابل لـــ(herméneutique).
21- néologisme
22- نوع من الشجر (le platane)